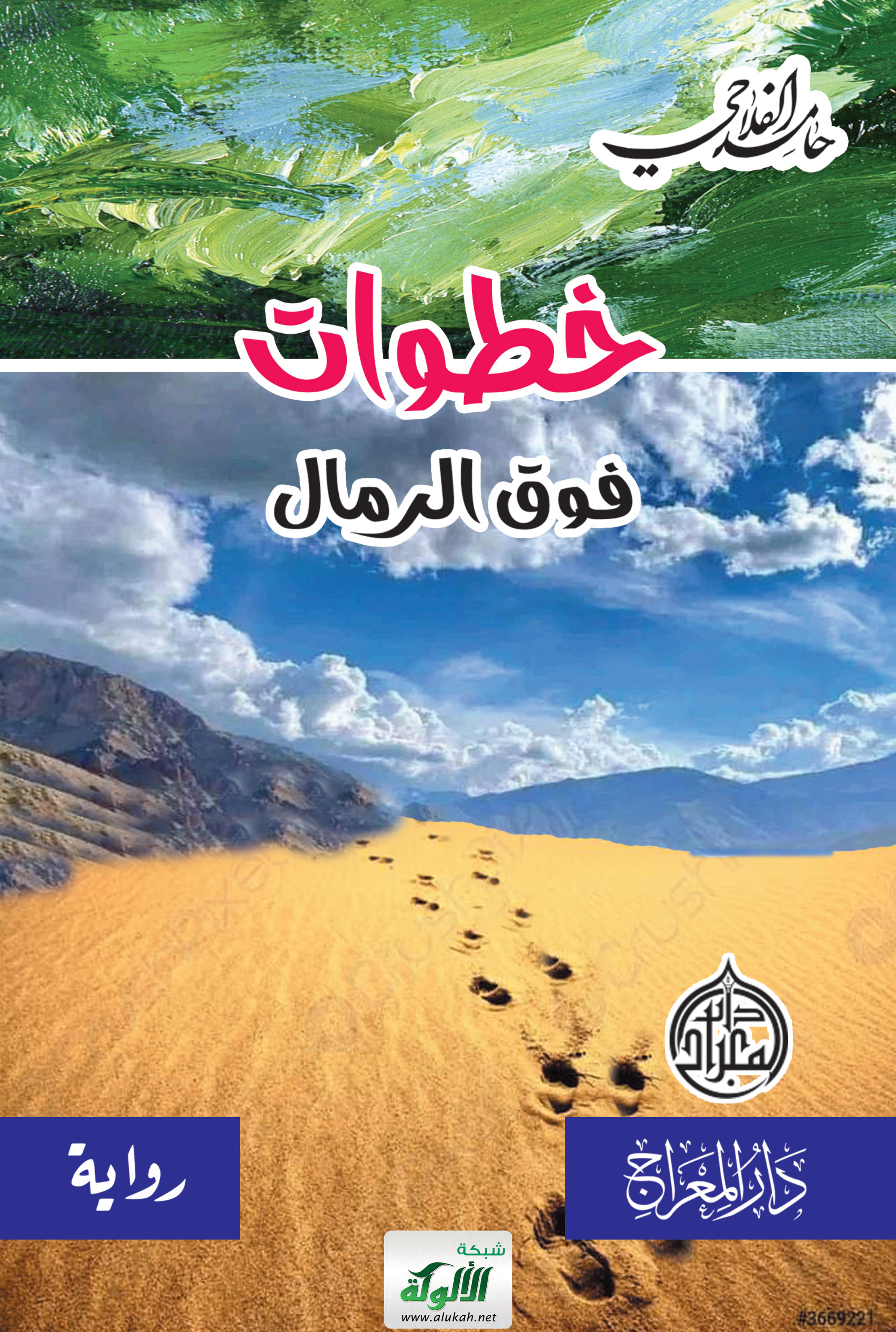
حامد الفلاحي
خطوات
فوق الرمال
رواية
دار المعراج
شبكة الألوكة
www.alukah.net
#3669221

خطوات فوق الرمال

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خطوات فوق الرمال

تأليف: حامد الفلاحي

عدد الصفحات: 80 صفحة

القياس: 14 × 20

الطبعة الأولى

1444هـ ـ 2023م

حقوق الطبع محفوظة

دار المعراج

تلفاكس: 963112247242+
ص.ب: 31429 ـ سورية ـ دمشق
E-mail: meraj.press@gmail.com

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

شبكة الألوكة

خطوات فوق الرمال

حامد الفلاحي

دار المعراج

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقدمة

وأنا أكتب هذه الرواية سألت نفسي: ما الذي يغري الكاتب ويدفعه لكي يحطّم حواجز الزمان والمكان، ليحلّق بأجنحة الخيال، ثم يوغل في أعماق التاريخ، بعيدًا عن مكانه وزمانه، فيرسم المشهد الذي لم يحدث، ويصوّر الحدث الذي لم يكن؟ هل هي أحلام اليقظة؟ أم هي أشواق الروح؟ أم هو الحنين إلى أيام قد خلت، كنّا فيها سادة العالم وقادته؟ أم هو البحث عن إجابات لأسئلة تؤرّقه؟ أم هي الرغبة في السفر والتجوال دون قيود، وبلا جواز سفر، أو تأشيرة للدخول؟

قد يكون السبب هذه، أو تلك، أو كل أولئك، لكن الذي لا يختلف فيه اثنان أنّ كتابة الرواية بهذه الطريقة نوع من الإبداع والتجديد، وهما لغة هذا العصر، من لم يتقنهما وجد نفسه، عاجلاً أم آجلاً، خارج السباق.

في هذه الرواية يرتحل الكاتب إلى الماضي، ليلتقي الرجل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذي كان يرعى إبل والده، إن عمل أتعبه، وإن قصّر ضربه، ويحتطب لخالاته في الجاهلية على حفنة من التمر، أو حفنة من الزبيب، كانت قوت يومه، قبل أن يبلغ أشدّه فيصارع فتيان العرب في سوق عكاظ، ثم لا تمرّ سنوات حتى يصبح (أمير المؤمنين)، ويحكم أكبر وأقوى ممالك عالمه!

ومَن منّا لا يعرف عمر؟ الفاروق الذي صنعه القرآن، فصنع بالقرآن حضارة!

فهل ترغب في امتطاء عجلة الزمن والعودة إلى الوراء قرونًا، لتصحب بطل هذه الرواية في رحلته إلى أول عاصمة للخلافة؟

إذا كنت راغبًا في ذلك فإنّ هذه الرواية تقطع لك التذكرة، وتحجز لك مقعدًا، وما عليك سوى أن تبدأ في قراءتها، بعد أن تطلق العنان لخيالك، وتتحرر من جاذبية الأرض، وتنطلق بلا حدود إلى عاصمة الفاروق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(١)

كنت أجلس وراء مكتبي في غرفتي الصغيرة، وعشرات الأفكار تتجاذبني، وأحلام كبيرة لم تجد طريقها إلى النور تحاصرني، فقد كنت ضائعًا، أبحث عن نفسي في دوّامة الأحداث التي يعيشها وطني، أشعر أنّ كلّ مَنْ حولي تماثيل من الشمع، يتحركون بلا إدراك، ويتكلمون بلا معنى.

إننا نعاني أزمة وعي!

لماذا يخطط لنا الآخرون؟ ونحن أسرى نشوة فارغة، لا ندرك من فقه الحياة إلاّ القليل، أحاديثنا نوعٌ من الثرثرة، وأحلامنا لا ترتقي إلى مستوى التحدّي الذي نواجهه، فلا غرابة أن يطبق عليّ اليأس من كلّ ناحية، وتحاصرني أحلام اليقظة، فتتلاحق أنفاسي مثل غريق يوشك الموج أن يبتلعه، أو مسافر يبحث عن محطة للفرح كي يترجّل فيها، ولعله أن يجد الراحة والقرار.

جروح وطني تؤلمني، وقد اجتاحته قوة بربرية جاهلة، تعيش

www.alukah.net
شبكة الألوكة

انحطاطًا أخلاقيًا لم تهبط إليه البشرية من قبل، قدمَت من وراء البحار، كفصيل ذئاب يسيل لعابه، تحاول أن تفرض سيطرتها على العالم كله، فاكتسحتنا في الطريق، فتساقطت الأقنعة، وتمزّقت الثياب، وبدا أكثرنا عاريًا بكل نقائصه وعيوبه، بعد أن حلّت بنا لعنة الدولار، وتلوّثت دماؤنا، وامتلأت الرؤوس بالسواد والظلام، وتحوّلت عواطفنا المتقدة إلى رماد، وامتد الفساد في خيط طويل، بدايته عند رجال القمة، ونهايته عند ماسح الأحذية!

أحيانًا ينتابني شعور بأنني لست في عالمي، أو أنني أعيش اللحظة الخطأ، وأنّ العالم الذي أنتمي إليه ليس هو الذي أعيشه اليوم، هل حدث خطأ ما فجئتُ إلى هذا العالم؟ أم أنّ مكاني الصحيح في كوكب آخر غير هذه الأرض، ثمة وشائج قوية تشدّني إلى عصور الصفاء: عصر النبوّة، وعصر الخلافة الراشدة، وعصور الدولة الإسلامية التي امتدّت من حدود الصين، إلى شواطئ الأطلسي.

ولشدّ ما أمقت الكذب، وأمقت النفاق، فكيف لي أن أعيش في زمن سياسته الكذب، وسلعته النفاق؟

لكنني أعود فأستغفر الله سبحانه، وهو الذي خلق كلّ شيء بقَدَر، وما كان لشيء أن يكون في المكان الخطأ، ولكننا كثيرا ما نخطئ

الحكمة وراء الأحداث.

شعرت بالضيق فتركت مقعدي، واتجهت نحو النافذة، ورحت أتأمل الشجيرات الصغيرة في الحديقة التي تتوسط الموقع الجامعي، ورغم أننا في شهر حزيران القائظ إلا أنّ شمس الظهيرة توارت خلف سحابة من التراب كانت تغطي صفحة الأفق، منذرة بيوم عاصف!

أفقت من شرودي على صوت خطوات تقترب، وأطلّ المهندس (سعد) فحيّاني، أومأتُ برأسي وانفرجت شفتاي عن ابتسامة باهتة قبل أن **يسألني**: هل ترافقني؟

وسألته: إلى أين؟

قال: إلى موقع العمل.

مشيت إلى جانبه بمحاذاة صف طويل من الأعمدة الكونكريتية، كان سعد يعمل في قسم السيطرة النوعية، ووجدتني أغرق معه في أكداس الحصى والرمل والطابوق، والفحوصات المختبرية ونتائجها، شعرت بالتعب فملتُ بجسدي نحو أحد الأعمدة قبل أن **أساله**: ما رأيك لو خضع أصحاب القرار وأهل المناصب في هذا البلد إلى فحوصات إنسانية؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتبسّم سعد وهو **يقول**: فحوصات إنسانية؟!

قلت له: إنّ بناء وطن أكبر بكثير من بناء جامعة، واليد الملوثة بالدم، أو التي أصابتها لوثة الدولار، لا يمكن أن تقود أمة، أو أن تقوم بحقوق الناس، وإجراء الفحص الانساني ضروري، كي نتأكد أنّ المرشح لهذا المنصب أو تلك المهمة يمتلك من المواصفات البشرية ما يؤهّله لهذا العمل، والمبدأ العُمَريّ: (**من أين لك هذا؟**) يجب أن يصبح قانون هذا البلد، إنّ فينا اليوم آفة بني إسرائيل: إذا سرق فيهم القوي تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد!

فجأة تغير لون الأفق فأخذ سعد بيدي وهو **يقول**: أسرع العاصفة تقترب.

هرولت إلى جانبه وأنا أحاول أن أتشبّث بيده، لكنني في النهاية أفلتّها، وأحاطت بي العاصفة الثائرة من كل جانب فأغمضت عينيّ، وأنا أحاول أن أتبيّن طريقي، فتعثّرَتْ قدماي ببعض الأحجار وسقطت!

حين أفقت كان المشهد من حولي قد تغيّر، ووجدتني أقف وسط فراغ يمتد بلا حدود، **صرخت** دون وعي: سعد، يا سعد!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولم يكن هناك غير الصحراء التي امتدت أمامي وكأنها بحر من الرمال، لا ساحل له ولا نهاية، كنت أتقي بيدي خيوط الشمس المحرقة، وأقتلع قدميّ من الرمال، أبحث عما يطفئ ظمأي ويؤنس وحشتي، وكنت أرقب الأفق وكأنني قادم من المجهول، من نقطة توقف فيها الزمن، وتلاشت فيها الأبعاد والأصوات والحركات!

أين أنا؟

ولم يكن هناك مَن يجيب، فجلتُ بنظري أبحث عن شيء، أيّ شيء، أحدد من خلاله موقعي، إنّ نسبية آينشتاين تُخيفني، لأنني إن لم أجد (شيئًا) فهذا يعني أنني دخلت عالم (المجهول)، وليس هناك ما يُخيف الإنسان أكثر من المجهول!

الظل والماء، ولم يكن لي غاية سواهما، فشمس الصحراء القاسية، ورمالها المحرقة، وهواؤها اللافح، كلّ ذلك قد بلغ مني، وكدت أن أستسلم لولا تلك الخيمة التي ظهرت وسط بحر الرمال الصامت الكئيب، فتسارعت خطواتي، وهل ثمة معنى لخيمة في الصحراء سوى الأمل والحياة؟

ترامى إلى سمعي نباح كلب، فانفرجت شفتاي عن ابتسامة ثم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دبّت في جسدي قوة مفاجئة حين سمعت ثُغاء الشاء!

- السلام عليكم.

لم يخلُ صوتي من حشرجة وأنا ألقي التحية، رفع طرفه إليّ، ثم استوى قائماً وقاسني بنظراته، ثمّ خطى خطوة أو خطوتين إلى الوراء قبل أن **يسألني** وهو يدفع بيده أمام صدره: من أنت؟

ولم تكن بي رغبة في الكلام **فسألته** في رجاء: شربة ماء يرحمك الله.

دخل خيمته، ثم خرج وفي يده وعاء فيه بعض اللبن، **قال**: اشرب، لا بأس عليك.

شربتُ اللبن، فدبّت الحياة في جسدي المكدود، وخفّت وطأة الظمأ، وجلستُ على طرف حصير أمام باب الخيمة، لم أستطع أن أقاوم وطأة النعاس، فاستسلمت لنوم عميق، ولم أصحُ إلا على صوت الأعرابيّ: الصلاة يا ولدي.

وحين أمّني في صلاة المغرب أيقنتُ وأنا أنصتُ إليه وهو يرتّل القرآن بأنني في زمن غير زمني، فلم أشعر يوماً بحلاوة الآيات وصفائها كما أشعر بها الآن.

وبعد الصلاة **سألته**: ما اسم هذا المكان؟

قال: وادي بُواط.

قلت: ماذا؟

قال: وادي بُواط، ألا تعرفه؟

هززت رأسي بالنفي، ثمّ **سألته**: أين أنا؟

ثمّ استدركت قائلاً: أعني في أي سنة نحن؟

قال: هذا هو العام السادس عشر للهجرة.

رمقته بنظرة ذات معنى، **فسألني**: ما بك؟

قلت: أحقٌّ ما تقول؟!

قال: نعم.

قلت: كأنك تهزأ بي؟

قال: ولماذا أهزأ بك؟

قلت: قلت أننا في العام السادس عشر للهجرة؟!

قال: هذا حق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلت: أيّ حق يا رجل؟ أنظر إليّ، لقد ولدتُ في القرن الرابع عشر الهجري!

ابتسم **وقال**: يبدو أن قيظ الصحراء قد بلغ منك، هل أُصِبتَ بضربة شمس؟

ثم سألني: من أي البلاد أنت؟

قلت وأنا أشير بيدي إلى بعيد: أنا من هناك، من شاطئ الفرات، من مدينة صغيرة اسمها (الفلوجة)، ألم تسمع بها؟

قال: لا، لم أسمع بها.

قلت: عجبًا!

قال: وفيمَ العجب؟

قلت: العالم، كل العالم، يعرف مدينتي، أنا أسميها عاصمة الكرامة، فعند أبوابها ذاقَ أقوى الجيوش أقسى هزائمه، وضرب الله سبحانه للناس فيها مثلاً، وجرت هناك إحدى سُنَنه، حين استطاعت قلة مؤمنة صابرة أن تقف أمام زحف البرابرة المدمّر، فجاء نصر الله، ونزلت سكينته، وقاتلت ملائكته، هل تعرف أميركا؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: ما أميركا هذه؟ بلدة رومية، أم قطعة من أرض فارس؟

قلت: لا هذه ولا تلك.

قال: ما تكون إذن؟

قلت: هل تعرف المحيط الأطلسيّ؟

ثمّ استدركتُ قائلاً: أعني بحر الظلمات؟

قال: لا أعرف سوى بحر خلف هذه الجبال.

قلت: ما اسمه؟

قال: بحر القلزم.

و**قلت** في نفسي وأنا أفتش جيوبي: البحر الأحمر، هذا ما تعلمته في درس التاريخ، من قال أنّ المدرسة لا نفع منها؟

وسألني: عمّ تبحث؟

قلت: هاتفي المحمول.

رمقني بنظرة حادة ثم دخل الخيمة.

ولم أعثر على هاتفي المحمول، ترى أين أضعته؟

ولكن ماذا لو كان الرجل صادقًا؟ هذا يعني أنني عدت إلى الوراء أكثر من ألف وأربعمائة سنة، هل أنا في حلم؟ أم أنني امتطيت عجلة الزمن ونسبية آينشتاين؟ كل ما حولي يؤكّد أنني لست في زمني، مَن قال إنّ الهواء بلا طعم ولا رائحة؟ إنني أشعر بالهواء الذي أتنفسه نقيًّا لم تلوثه فيروسات عصرنا، ولا عكّرت صفاءه مباءات القنوات الفضائية وقمامة الشبكة العنكبوتية.

نقلة إلى الوراء لعشرات القرون جاءت بي إلى هنا، إلى خيمة هذا الأعرابي الطيب، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ولماذا؟ مَن يدري؟ لعلها أحلام اليقظة التي تلقي بظلالها حين يطول الأمل، ويقلّ الزاد، وتؤرّقنا وحشة الطريق، فنعيش أسرى الأحلام، نبني القصور في الهواء، ونرسم الأمنيات على الورق!

في صباح اليوم التالي حمل الأعرابي زُوّادته وعصاه **وسألني**: هل ترافقني؟

قلت: إلى أين؟

قال: إلى المرعى.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعيش فيها حياة الصحراء، لم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أكن أعرف أنها تخبئ من صور الجمال كالذي أراه من حولي، كانت الشمس ترسل خيوطها الذهبية، وهي تطالعنا على استحياء، وقطيع الأغنام يمضي في حركته المتناغمة، والكلب الأمين يراقبه في حذر، فيقوده في طريقه، ويعيد الشارد منه، وأجمل من كل ذلك: هذا الفضاء المفتوح، الممتد أمامي، لوحة للحرية والانطلاق، أجمل من كل ما أبدعته ريشة رسّام!

في المرعى راحت الأغنام ترعى فوق المساحة الخضراء، فيما آوى الكلب إلى ظل شجرة الطرفاء، وما زالت عيناه تراقبان القطيع في يقظة، أما الأعرابي الطيّب فقد صعد إلى تلة قريبة، فتبعته حتى إذا صرتُ بمحاذاته أبصرت معالم بيوت عند الأفق، **فسألته** وأنا أشير إليها: ما هذه؟

قال: هذه المدينة.

قلت: مدينة رسول الله ﷺ؟

قال: نعم.

كان يتحدث ببساطة لا تشي بالكذب، وكان عليّ أن أصدقه وأستسلم لقدري، فاقتربت منه، وأسندت ركبتيّ إلى ركبتيه، **وسألته**:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالأمس قلت لي أننا في العام السادس عشر للهجرة، أليس كذلك؟

هزّ رأسه في ثقة **وقال**: نعم.

قلت: وبيوت الطين هذه؟

قال: ما بها؟

قلت: أهي المدينة؟

قال: نعم.

قلت: عاصمة الخلافة؟

تململ في جلسته، وهمّ أن يتركني، فأمسكت بيده **وقلت**: أرجوك.

زمّ شفتيه وتنفّس بعمق **وقال**: ماذا تريد؟

قلت: أجبني.

قال: أين السؤال؟

قلت وأنا أحرك سبابتي وأضغط على كلماتي: هل أجد عمر بن الخطاب هناك؟

انحدر إلى الوادي الأخضر وهو يلقي بكلماته في تذمر: وأين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يكون إذن؟

وبعد خطوات توقف، ثم التفت إليّ **وقال** وهو يداعب ذقنه بيده: لماذا لا تذهب بنفسك؟

قلت: إلى أين؟

قال: إلى المدينة، هناك ستلقى عمر.

وتركني في حيرتي ومضى.

ما زالت عيناي مشدودتين إلى بيوت الطين، أهي المدينة؟ عاصمة الفاروق عمر بن الخطاب بن نُفيْلٍ العَدَويّ؟ أحبّ الرجال إلى رسول الله ﷺ بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بهذا حدثنا عمرو بن العاص رضي الله عنه حين سأل النبي ﷺ: أيّ الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة)، قال: يا رسول الله، من الرجال؟ قال: (أبوها)، قال: ثم من؟ قال: (عمر بن الخطاب).

ورغم حرارة الشمس، وقيظ الصحراء، وقسوة هوائها، فلم يكن أمامي إلا أن أتوجّه إلى المدينة، فلعلّي أن أبدّدَ هذه الحيرة التي تغلّف المكان من حولي، وقد وجدت نفسي في عالم مجهول، لا أعرف عنه شيئًا سوى ما قرأته في بطون الكتب.

(٢)

حين انتصف النهار **قلت** للأعرابي: سأدخل المدينة.

قال: وما يمنعك؟ إن هي إلا ساعة من نهار.

ثم استدرك قائلاً: الحر شديد، والرمال محرقة، وأمامك حَرّة واقم.

وسألته: وما حَرّة واقم؟

قال: أرض ذات حجارة سوداء حادة الأطراف، قد تؤذي قدميك، أما معك فرس أو جمل؟

وابتسمت وأنا أحدّث نفسي: لا أملك إلا دراجتي، ولقد تركتها هناك، في بيتي.

وقال الأعرابي وهو ينظر إلى حذائي: أروميّ حذاؤك؟

قلت: بل حذاءٌ عراقي!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأضفت: لقد دخل التاريخ، هل أقصّ عليك حكايته؟ إنه سلاح يستخدم لأول مرة، قلت لي أنك لا تعرف أميركا؟

قال: ها قد عدتَ إلى هذيانك، ما أميركا هذه؟

قلت: شعوبٌ تعيش وراء بحر الظلمات، تملك كل أسباب القتل والتدمير: جيوشًا وأساطيلَ وأسلحة، وقواعد في البر والبحر، لكنها قوة بلا عقيدة، وسياسة بلا أخلاق، دخلت بلدي فدمّرت مدنه وقراه، وارتكبت فيه من الجرائم ما تنوء بوصفه الأقلام، لقد حرّفوا مفهوم القوة فأصبح (عنفًا لا يحتاج إلى مبرّر)، وحرّفوا مفهوم الحرب فأصبح (ممارسةً للقتل بالطريقة التي تروق لك)!

كان الأعرابي الطيب ينظر إليّ، ويهزّ رأسه في غير مبالاة، ولم يشك في أنني رجل مجنون قذفت به الصحراء، وتمنّيتُ لو أنصت إليّ فقصصت عليه حكاية (حذاء الزيدي) الذي رجم به الفرعون القادم من وراء البحار، ونقلت وسائل الإعلام المشهد حيّا، في بث مباشر شاهده الملايين!

تركت الأعرابي في مرعاه، بعد أن شكرته وودعته، ولم أنسَ أن أودّع الكلب الأمين بنظرة حانية، ثمّ اتجهتُ إلى المدينة.

في الطريق كنت أمنّي النفس بلقاء صاحب رسول الله ﷺ، وأشدّ الناس في دين الله، والرجل الذي حمل الناس على الحق، وروّع الظلم بعصاه، فخافها الفاجر في خراسان، واللص في أرض العراق، والظالم في أرض الشام، وما ذاك إلاّ لأنه خاف الله، فخوّف الله منه رعيته!

لم أشعر بوعورة الطريق وأنا أستذكر بعض أخبار عمر، حتى إذا أصبحت على أبواب المدينة تنامى إلى سمعي صوت قادم من نافذة أحد البيوت: أفي مثل هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ فيجيبه صوت آخر كان أقرب إليّ منه: ويحك يا عثمان، بعيران من إبل الصدقة ضَلّا، وخشيتُ أن يسألني الله تعالى عنهما، فخرجت في أثرهما حتى ظفرت بهما.

تسمّرتُ في مكاني، وشعرت بخَدر في ساقيّ، وأنا أتملّى الرجل الذي كان يسوق البعيرين أمامه، ويحرص على أن لا يفلتا منه، كان طويلاً، واسع الخطوة، يضرب الأرض بقوة، وحبات من العرق تتلألأ على وجهه، ورحت أحدّث نفسي: أتراه عمر؟ ومَن يكون غيره؟ أما سمعت الرجل يناديه: يا أمير المؤمنين؟ لقد كان رضي الله عنه أول من لُقِّبَ بهذا اللقب يوم وقف في الناس يقول: (أنتم المؤمنون،

وأنا أميركم)، **فقالوا**: نعم، أنت أمير المؤمنين.

مشيت خلفه دون أن ينتبه إليّ، حتى انتهى إلى (أرض الحِمى) التي جعلها مرعىً عاماً لأنعام أهل المدينة، لا يُمنَعُ عنها أحد، وهناك عَقلَ البعيرين، ثم تناول قِربَة واتجه إلى بئر قريبة فملأها وحملها على كتفه، ثم صبّ الماء في وعاء، ثمّ قرّبه من البعيرين فشربا، وحين اطمأنّ إليهما آوى إلى ظلّ شجرة، فأتاه رجل يُسرع في مشيته، عرفت فيما بعد بأنه راعي الحِمى والمسؤول عنه أمام الخليفة، **فيسأله** عمر: كيف حال الحمى؟

فيقول الرجل: كما تحبّ يا أمير المؤمنين.

ويسأله عمر وهو يشير إلى إبلٍ كانت ترعى في ناحية منه: لمن هذه الإبل السمان؟

ويجيبه الرجل: لولدك عبد الله.

ويهزّ عمر رأسه **قائلاً**: بخٍ بخٍ، ابن أمير المؤمنين! أدعهُ إليّ الساعة.

وما هي إلا لحظات حتى أقبل عبد الله يشتدّ في مشيته، فلما وقف أمام أبيه **ساله**: ما هذه يا عبد الله؟

قال: إبلٌ لي يا أمير المؤمنين.

قال: أعرف هذا.

قال: اشتريتها تجارة، وهي ترعى في الحمى.

قال: فمال بالُ إبلك قد سمنت دون إبل الناس؟

أطرق عبد الله، **فأضاف عمر**: أطعموا إبل ابن أمير المؤمنين، إسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، أليس هذا ما تعاهد عليه رعاة الحِمى؟ حتى سمنت إبلك وامتلأت باللحم؟

قال: والله ما أوصيتهم بشيء من هذا!

قال: والله ما سمنت إبلك إلاّ بسلطان أبيك، بِعْها، وخذْ رأس مالك، وردّ ما زاد عنه إلى بيت مال المسلمين.

ولم يزد عبد الله على أن **قال**: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين.

يا الله! هذا الرجل يحكم اليوم أكبر ممالك العالم وأقواها، حقًا إنّ العظمَة البشرية شيء آخر، غير المُلك والقوة والغنى، إنها ترقد في قلب المؤمن، يغذّيها شعور بالبساطة، والإستعلاء فوق الإغراء، والتعالي على توافه الحياة، والثقة بالله سبحانه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتـراءت لـي عندها أكثر من صورة، وارتسم أمـامي أكثر من مشهد، ووجدتني في شارع (40) الشهيـر فـي مدينة الفلوجة، حيث تقوم بناية صغيرة، يزدحم الناس عند بابها كل يوم، كنت أنظر في تلك الوجوه وأنا فـي الطريق إلـى عملـي، كهولاً وعجائزَ وشبابًـا معاقيـن، ونسـاءً يفتـرشنَ الأرصفة، وكلهم ينتظر الفتات الذي يُلقيه إليهم أولو الأمر تـحت مسميات شتى: راتـب تقاعدي، أو نفقات خيـرية، أو رعاية اجتماعية!

وكنت أحدث نفسي وأنـا أنظر فـي تلك الوجوه الـمتعبة التي أرهقها طول الانتظار: لقد كان عمر بن الـخطاب رضي الله عنه يـحكم هذه الأرض ذات يوم، فملأهـا عدلاً وسار بيـن أهلها بالـحق، ووضع الـميزان، فمـا احتاج كهل أن يقف بباب أحد، ولا اضطرّت امرأة أن تفتـرش الطريق، وهو الـذي أرّقَ ليله أن تعثر بغلة فـي أرض العراق فيسألـه الله سبحانـه يوم القيامة: لِـمَ لـم تُسَوِّ لـها الطريق يا عمر؟ وأرّقَ نـهاره جمَـلان من إبل الصدقة ضَلاّ فخرج يبحث عنهمـا فـي ساعة حـرّ وقيـظ شديد!

ولـم يطل بي الـمقام هتى نـهض عمر، واتـجه نحو الـمدينة، فمرّ به طفل يركب حـمارًا، استوقفه عمر **قائلاً**: ألا تـحملني معك؟

فغر الطفل فاه من الدهشة، ثمّ ترجّل **قائلاً**: بل تركب أنت وأمشي أنا يا أمير المؤمنين.

فيقول له عمر: بل نركب نحن الإثنين.

وركب عمر خلفه!

حتى إذا دخلا المدينة شكره ومضى، وسمعت الطفل يكلم حماره **فيقول**: هذا خير يوم مرّ عليك مذ ولدتك أمك، إنه أمير المؤمنين!

ولم أستطع أن أكتم ضحكتي فانتبه إليّ، ثم أقبل نحوي **يسألني** والدهشة تملأ وجهه: من أنت؟

ولم تكن بي رغبة في أن أفصح له عن هويتي، لأنه لن يصدقني، ولا أريد له أن ينظر إليّ كمجنون يتفوّه بكلمات غريبة، أليس هذا ما اقتنع به الأعرابيّ الطيّب؟

قلت له: لا عليك.

قال: كأنك لستَ من أهل المدينة؟

قلت: نعم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: أنت ضيفي إذًا.

قطع حديثنا صوت المؤذن، ورأيت جموع الرجال، وبعض النسوة، يتوجهون نحو المسجد، ومشيت إلى جانب الطفل وهو يقود حماره، **فسألته**: ما اسمك؟

قال: أوس، وأنت؟

قلت: ماذا؟

قال: ما اسمك؟

قلت: غريب.

قال: غريب؟ ما أعجب هذا الاسم؟

قلت: ألم يقل رسول الله ﷺ: (كن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل)؟

قال: بلى.

قلت: ذاك أنا.

وحين وصلنا المسجد النبوي عقل أوس حماره إلى نخلة قريبة، ثمّ دخلنا، ووجدتني أعود إلى الوراء، إلى تلك اللحظة التي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضرب فيها النبي ﷺ أول معول في أساس هذا المسجد، وخطب أول خطبة له بعد بنائه فقال:

(أما بعد: فقدّموا لأنفسكم، ومَن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقّ من تمرةٍ فليفعل، فمَن لم يجد فبكلمةٍ طيبة).

تطلعت في جدران المسجد التي بنيت من اللّبِنِ، ملاطه الطين، أعمدته من جذوع النخل، وسقفه من أصول الشجر وسعف النخيل، ولم يكن له إلاّ الباب الذي دخلنا منه، وباب صغير موصد في الناحية الأخرى، علمت بأنه (باب عائشة) رضي الله عنها، وهو الباب الوحيد الذي بقي مفتوحًا على المسجد بعد أن أغلقت أبواب أمهات المؤمنين بوصية من رسول الله ﷺ، وخلفه يقوم قبره وقبر صاحبه، وأحبّ الناس إليه، الصديق أبي بكر رضي الله عنه، صاحبه في الغار، وخليفته، وجاره في عالم البرزخ، ورفيقه في جنة الخلد.

وهنا، في هذا المسجد، يرسم عمر بن الخطاب الخطط الحربية لقادته في جبهة الشام حيث يرابط جيش أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه، وجبهة العراق حيث يرابط جيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن هذا المسجد يكتب عمر رسائله إلى القادة والولاة والقضاة في أمصار الدولة، يوصيهم بتقوى الله، والعدل بين الناس، ومواساة الفقير،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعيادة المريض، والسعي في حاجات الأرامل والأيتام، والأخذ على يد الظالم، وإقامة حدود الله، وأن لا تأخذهم فيمن وجب عليه حدّ من حدود الله رأفة ولا رحمة.

وبهذه الموازين القسط حكم عمر دولته، وحصّنها من كلّ خطر، ففقه الناس ما لهم، وما عليهم، وكان ﷺ يسعى في حوائجهم ما وسعته الطاقة، فلا غرابة أن يحبّوه على شدته، وإنما هي شدّة في الحق، يصون بها حقوقهم، ويرعى بها مصالحهم، ويدفع بها عدوهم.

صليت العصر وراء عمر، حتى إذا أتمّ الصلاة اخترق الصفوف رجل بدت عليه علامات السفر، فلما صار بين يديه ألقى بخصلة من الشّعر على صدره، وهو **يقول**: أما والله لولا النار يا عمر!

ويقول له عمر: صدقت أما والله لولا النار.

ثمّ يساله: من أيّ البلاد أنت؟

قال: من البصرة.

قال عمر: وما حاجتك؟

www.alukah.net

قال: مظلمة.

قال: ومَن ظلمك؟

قال: واليك، حلق رأسي وضربني عشرين سوطًا.

ويفسح عمر للرجل مكانًا إلى جانبه **قائلاً**: اجلس.

ثم يستمع إلى شكواه، قبل أن يكتب إلى والي البصرة أن يجلس وخصمه إلى القاضي، فإن ظهر أنّ الحق لخصمه مكّنه من نفسه، حلقًا بحلق، وضربًا بضرب، ثم التفت إلى الناس يقول: (لئن يكون الناس كلهم على قوة هذا أحب إليّ من جميع ما أفاء الله علينا).

وتزاحمت المشاهد في ذاكرتي المتعبة، وارتسمت أمامي عشرات الصور، كان في مقدمتها صورة طفل في عامه الرابع، فوق المقعد الأمامي لسيارة صالون صغيرة، وقد سال دمه حتى رسم بقعة حمراء فوق الأرض، لقد كانت تلك السيارة تقله إلى إحدى رياض الأطفال بالقرب من تقاطع الأردن في مدينة الفلوجة، حين اخترق الفضاء صوت انفجار قوي لسيارة (مفخخة) انفجرت في تلك الساعة، وقتلت سبعة، كان ذلك الطفل أحدهم، من يأخذ بحقه؟ من يقتص من الجناة؟ من يجفف دمعة أمه التي كانت معه في تلك السيارة،

وما منعها من أن تموت معه سوى أنها غادرت السيارة قبل الحادث بدقائق؟

حين خرجت من المسجد كانت الأفكار تتصارع في رأسي، هل أستطيع أن أنسلخ من عالمي وأرتدي ثوبًا جديدًا؟ لقد كنت غريبًا في مجتمع المدينة، أشعر بالتيه وسط قوم أعزّهم الله بالإسلام، وأعزّ الإسلام بهم، أيمكن أن أنتمي إلى هؤلاء؟ أأكون وعمر بن الخطاب من أمة واحدة؟ لقد تضاءلتُ مثل قزم دخل بلاد العمالقة، إنّ الهزيمة النفسية التي تعاني منها أجيالنا ما زالت تلاحقني، وأنا القادم من عصر الفضاء وثورة المعلوماتية، عصر الجاهلية الجديدة التي تحاول أن تعرف كل شيء عن الكون والحياة، لكنها لم تخطُ خطوة واحدة لتعرف خالق الكون وواهب الحياة!

والإنسان في داخله، كعالمه الخارجي، يغلي بالزلازل والبراكين، تتقاذفه عليه الأعاصير، يعيش بين المدّ والجَزر، تشتعل العواطف في أعماقه ولكن بلا دخان، وها أنا في دوامة الأحداث، أعيش تلك اللحظات المضطربة، لأنني جئت من عالم آخر، إلى عالم لم أستطع أن أصنعه هناك، في عصر العولمة ونُذُرِها الخطيرة، فامتطيت عجلة الزمن، أحمل في رأسي أكثر من سؤال، وأحمل في قلبي هموم عصر

وأحزان جيل يلهث كجواد أنهكه السباق في حلبة يتقدمها الديناصور الأمريكي الذي يحاول أن يقودنا إلى حيث لا ندري، ولا نريد!

أفقت من شرودي عند باب المسجد وأوس يمسك بيدي وهو يقول: كيف حالك يا غريب؟

ثمّ مضى بي وسط أفواج المصلين وهو **يقول**: أنت ضيفي هذه الليلة.

وإذا كان هناك من الوجوه من يغذّيك مرآها بالسعادة، فإنّ وجه أوس أحدها، لا تملك حين تنظر إليه إلاّ أن تبتسم، وتستسلم لمشاعر حبيبة، لم يكن قد جاوز الخامسة عشر، لكنّ ابتسامته، وحركات يديه، ومشيته، كلها تحمل علامات الرجولة، لم أستطع أن أجاري خطواته الواسعة، وبصعوبة كنت أجاري فصاحته وبلاغة كلماته!

- إجلس، مرحبًا بك.

قالها لي أوسٌ حين دخلنا بيته، وهو يشير إلى حصير في زاوية الغرفة، قبل أن يُلقي إليّ بوسادة حشوها ليف، ثمّ حمل الماء إليّ في جرّة من الفخار، **وسألته** وأنا أدني الماء من فمي: من أين

www.alukah.net

تأتـون بالـمـاء؟

قال: من بئر أرومة.

قلت: تلك التي اشتراها عثمان بن عفان من صاحبها اليهودي؟

قال: نعم، هل تعرف القصة؟

قلت: قرأتُها.

رفع إليّ عينيه **وقال**: قرأتَها؟!

وانتبهتُ لكلماتي!

حين سألته عن أبيه أخبرني أنه خرج إلى الشام في جيش أبي عبيدة المرابط عند بيت المقدس، وقلت في نفسي: الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، وفي كل عصر هناك رجال صدقوا، وهل كان الرجال الذين وقفوا في وجه المحتل الأمريكي إلا أحفاد رجال أبي عبيدة المرابطين عند بيت المقدس؟

لقد كتبتْ مدن العراق تاريخًا جديدًا لهذه الأمة، الكبرياء عنوانه، والتضحية لغته، فسقطت أسوار الخوف التي كانت تحاصرنا لعقود طويلة، وستخرج من بين الركام أجيال تحمل فقهًا جديدًا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للدين والحياة، لتؤسس لحياة جديدة تحت راية القرآن.

في بيت أوس استشعرت لذة النوم، وكأنّ ذاكرتي قد أعيدت برمجتها، فتخلّصتُ من الأفكار الثقيلة التي كانت تهجم عليّ كلما آويت إلى فراشي الوثير فوق الأريكة الخشبية، إنني الآن أعيش عصر الصفاء، وأرتمي في أحضان الحقيقة الدافئة، بعد أن فتحت عينيّ على حياة من نوع آخر، آسر بجماله ونقائه وبساطته، رغم أنني أتوسّد الليف، وأنام فوق حصير سيترك بصماته على جسدي!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(٣)

الحياة في المدينة تروح وتغدو في سلاسة ويسر، إنه مجتمع البساطة، يعيشها في كل شؤونه، في حديث الناس، وملبسهم وأثاثهم وآنيتهم، وفي بيوت الطين واللّبِن والحجر، التي تُطأطئ سقوفها تواضعًا!

والحركة في شوارع المدينة تبدأ قُبَيل صلاة الفجر، ثم تتسارع حين يرتفع صوت ابن أم مكتوم مؤذنًا للصلاة، حينها يبدأ نهار المدينة ومعاشها، وينطلق الناس بعد الصلاة إلى مزارعهم ومتاجرهم، فترى عالما يضجّ بالحركة، وبإيقاع لا تشعر معه إلاّ بالسعادة، فهنا يعيش الناس بلا أقنعة، الصدق قانون الحياة، والبساطة والوضوح والالتزام أوتادها، توقفت ذات صباح عند دكان حداد في سوق المدينة، يصنع السيوف والحراب والتروس، كان يضرب الحديد الساخن بمطرقته، وما فتئ يرمقني بنظراته المتفحصة، فهيئتي الغريبة تثير السؤال من حولي: من هذا الغريب الوافد إلى المدينة وهو يرتدي البنطال

والقميص، وعلى وجهه آثار لحية؟ ترامى إلى سمعي صوت أحدهم وهو **يقول** لصاحبه: لعله رسولٌ من ملك الروم!

وقال آخر: أو لعله من تجار بني الأصفر!

وعزائي أنه لم يكن للناس فضول كبير، فالكل هنا مشغول بحاجته، يمضي في طريقه دون أن يلتفت، لأنه عرف هدفه، وليس لديه وقت للثرثرة.

كنت أحدّث نفسي أنني هنا من أجل هدف محدد، لا عبرة بهذه الرحلة دون بلوغه، إنّ عليّ أن ألتقي الخليفة الراشد صاحب رسول الله ﷺ، فأجلس إليه، وأكلمه وأسمع منه، وكنت أخشى ذلك اللقاء، فثمة شقة تفصل بيني وبينه، وهل من المنطق أن يفكر عصفور صغير في لقاء النسر في عليائه؟ حدثتني نفسي أيضًا بأنني أمتلك رصيدًا في تواضع الفاروق، فلقد عرفته في سيرته المقروءة رجلاً بسيطًا، لولا طوله الفارع ما عرفته وهو يمشي في الطريق بين أصحابه.

كنت أقاوم ضعفي كلما تمثّلت أمامي صورة وطني الجريح، الذي دنّس تربته رعاة البقر ومغول القرن الحادي والعشرين، فجفت ينابيعه، وذبلت أزهاره، وتساقطت أوراقه حين حلّ به الخريف الحزين!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي الضاحية الجنوبية للمدينة، حيث تقوم بقايا حصون بني النضير وبني قريظة، وعلى حافة ساقية صغيرة كانت تقوم شجرة توت مثمرة، أغراني ظلها فتسارعت خطواتي، حتى إذا اقتربت منها تسمّرت قدماي، وتسارعت نبضات قلبي، وركبتني رهبة مفاجئة، وأنا أتملّى الرجل الذي افترش الأرض، كان حسن الوجه، أبيض مُشرَب بحمرة، قد ألقى دُرّته، وتوسّد يده، تذكّرتُ تلك القصة الشهيرة التي روتها كتب السير، حين وقف رسول فارس، تماماً كوقفتي هذه، وقد أخذته الدهشة وهو ينظر إلى أمير المؤمنين عمر نائما في ظل شجرة، وظل دولته يمتد من مصر إلى خراسان، فقال قولته المشهورة: (عدلتَ فأمنتَ فنمت)!

هذا هو عمر، فاروق هذه الأمة، رآه النبي ﷺ ذات ليلة في منامه، وقد جيء له بقدح من لبنٍ فشرب منه حتى خرج من بين أضفاره، فأعطى ما تبقّى منه لعمر، فلما **سأله أصحابه**: فما أوّلتَ ذلك يا رسولَ الله؟ **قال**: (العلم)!

نسمات الهواء باردة نقية، والطيور تردد ألحاناً جميلة، والفضاء من حولي عامر بالألوان، وشجرة التوت ترمقني بنظرات حبيبة، والماء ينساب في الساقية في حركة متناغمة مع المشاعر الطيبة التي يمرح

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معها قلبي، حين فتح الخليفة عينيه:

- السلام عليكم.

وأجبته وبين أهدابي دموع أمسكتها حياءً: وعليكم السلام....... ورحمة الله.

- كأنك غريب عن المدينة؟

- نعم يا أمير المؤمنين.

- اقترب.

ولم تطاوعني قدماي، ارتجفت شفتاي وأنا أحاول أن أستجمع الكلمات!

الصمتُ في حرمِ الجمالِ جمالُ

إنّ الحروفَ تموتُ حينَ تُقالُ

نظر إليّ وأنا أبتلع ريقي الجاف فابتسم، ثم التقط دُرّته وأقبل نحوي حتى عانق ظله ظلي، مدّ إليّ يده فوجدتني أنحني لأقبّلها، لكنه انتزعها يرفق وهو يقول: **لا تَحنِ رأسك لغير الله يا فتى.**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم أضاف وهو يأخذ بيدي ويمضي: لعلنا نجد بعض الطعام عند أم كلثوم.

وكان يعني زوجته، أم كلثوم بنت عليّ، فقد كان صهرًا لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد خطبها إليه ذات يوم **فقال**: يا أبا الحسن، إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**كلّ سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي وصهري**)، وكان لي السبب بصحبته، والنسب بزواجه من ابنتي حفصة، فأردتُ أن أجمع إليه الصهر بزواجي من ابنتك أم كلثوم.

فقال له عليّ: أراجعها، فإن وافقت حملناها إليك.

ولم تتردد أم كلثوم فحملها أبوها إلى بيت عمر.

وعليّ هو وزير عمر ومستشاره، وقاضيه على المدينة، وهو الذي أشار عليه بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يكتب تاريخًا، وقد سأل عمر أصحابه: متى نكتب التاريخ؟ فقال عليّ: (منذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم من أرض الشرك)، يعني: من يوم هاجر من مكة إلى المدينة، فأقرّ عمر ذلك.

حاولت جاهدًا أن أجاري الفاروق في مشيته، توشك خطواتي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المتعثرة أن تخذلني، وهو لا يفتأ ينظر إليّ ويبتسم، حتى بلغنا بيته، ولم يكن يبعد عن المسجد كثيرًا، لا تكاد تميزه عن بيوت المدينة، وقد بني من الحجر والطين، أرضه مغطاة بالحصى، وسقفه من خشب الأشجار وسعف النخيل، وقد رُصِفَتْ بعض الأحجار عند بابه.

وأكلت من طعام أم كلثوم، كسرات يابسة من خبز الشعير، وقليل من الزيت، وكان الذي حمل الطعام إلينا طفل في السابعة من عمره، التفت إليّ عمر **قائلاً**: هذا أبو بكر بن عليّ.

وسألت الطفل وما زالت نظراتي عالقة في وجهه: أنت أخوها؟ أعني أم كلثوم؟

قال: نعم، لكن أمي هي ليلى بنت مسعود.

ثم أضاف **يقول**: من بني تميم.

وسألته: مَن الذي سمّاك أبا بكر؟

وابتسم قائلاً: أبي.

وسألته: وإخوتك؟

قال: (الحسن والحسين) من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، و(عمر)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من أم حبيب الصهباء بنت ربيعة، و(عثمان) من أم البنين بنت حزام.

قلت: هذا يعني أنّ الحسن والحسين وأبو بكر وعمر وعثمان إخوة، فكلهم أولاد عليّ.

وسألني عمر: وأية غرابة في ذلك؟

قلت: إنّ الرجل لا يسمّي أبناءه إلا بأحبّ الأسماء إلى نفسه.

قال عمر: هذا حق، وهل هناك قوم أحبّوا بعضهم مثل أصحاب رسول الله ﷺ؟

وسألته كمن تذكّر شيئًا: ألم تكن حاضرًا حين دخل عليٌّ على أبي بكر وهو مسجّى في فراشه؟

قال: بلى؟

قلت: فماذا قال عليّ يومها؟

قال: دخل علينا عليّ ونحن جلوس عند أبي بكر وقد لقي ربه، **فقال**: يرحم الله أبا بكر، والله ما أحبّ أن ألقى الله بصحيفة مثل صحيفة أبي بكر.

وحين أتم عمر طعامه **سألني**: كأنك تعجب مما تسمع يا فتى؟

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلت: إنما أعجب من قوم يفرّقون بينك وبين عليّ، ويرونه أحق بالخلافة من أبي بكر.

قال عمر: أما أبو بكر فلقد كان أحقّ الناس بها، فحين أعجَزَ المرضُ رسولَ الله ﷺ عن الخروج للصلاة قال: (**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**)، فخرج بلال يلتمس أبا بكر فلم يجده، فلما رآني قال: صلِّ بالناس يا عمر، فلما سمع النبي ﷺ تكبيرتي قال: (**يأبى الله ذلك والمسلمون، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**)، أفيرضاه رسول الله ﷺ لديننا ولا نرضاه لدنيانا؟!

قلت: وأنت؟

قال: استخلفني أبو بكر على كُرهٍ مني، بعد أن شاور أصحابه، وقد استَعفيتُه فأبى **وقال**: إن أبيتَ حملناك عليها بالسيف.

وسألني عمر: بقي أن نعرف من أنت.

رفعت طرفي إليه في حذر، ثم أغمضت عينيّ وطأطأت رأسي، **فسألني**: ما الأمر يا فتى؟

وكان عليّ أن أواجهه بالحقيقة، فقلت ودمعة ساكنة ترقد بين أهدابي: يا أمير المؤمنين........

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان صوتي متقطعًا، وأنفاسي لاهثة، فأشار إليّ بيده **قائلاً**: هَوّنْ عليك.

ثم أضاف: أجئت تشكو مظلمة؟

قلت: بل مظالم يا أمير المؤمنين، إنهم لم يحلقوا رأسي، ولم يضربوني بالسوط، لكنهم أمطرونا بالقنابل العنقودية، والفسفور الأبيض، وجرّبوا فوق رؤوسنا أسلحة دمار تستخدم لأول مرة.

هزّ الخليفة رأسه، **فقلت**: هل تؤمن بقدرة الله؟

قال: إنّ الله على كل شيء قدير.

قلت: وأمام قدرة الله، تتلاشى الأزمان والأبعاد والمسافات، فيصبح كل شيء هو الحاضر المشهود، والفتى الذي بين يديك جاءك من المستقبل، لستُ مجنونًا يا أمير المؤمنين، ولا تتعجّل في الحكم عليّ حتى تسمع قصتي.

والتفتَ عمر إلى أبي بكر **يقول**: بعضَ الماء يا أبا بكر.

ثم أقبل عليّ **قائلاً**: نسمع قصتك.

ولم أجد صعوبة في إقناع الفاروق بأنني قادم من المستقبل،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعد أن عبرت بوابة الزمن، وقطعت فيها أكثر من ألف وأربعمائة سنة، في لحظة كلمح بالبصر، إنها مشيئة الله وقوته المطلقة.

قلت له: إنّ قوة الله القاهرة فوق الزمان والمكان، فالزمان والمكان خلفيات لا معنى لها، وما أيسر تحطيمها لمَن يعيش بكلمات الله.

وكان، رضي الله عنه، يستمع إليّ باهتمام وأنا أحدّثه عن وطني الذي حوّله الأمريكان إلى مأتم كبير، وفي النهاية قلت له: نحن المسلمون ننتمي إلى عالم هو قرية صغيرة لا يمكن أن نقيم بيننا وبينها جبلاً من نار، إنّ مدن بلادي ترقد في صمت كئيب، ونحن نفتقد الهوية، لذة الانتماء إلى شيء، حرارة القلب التي تهب دعوتنا الحياة، أمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس.

قال عمر: كأنكم تعيشون عصر الحيرة الكبرى؟

قلت: الخوف والنفاق يفسدان كلّ شيء في حياتنا، الشعارات تملأ علينا حياتنا، في الشوارع والساحات، وفي حديث الساسة، وحتى حديث الخطباء فوق المنابر لا يعدو أن يكون نوعًا آخر من الضوضاء التي لا تلامس قلوب الناس، ولا ترتقي إلى مستوى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

همومهم وآلامهم، والسياسة في عصرنا مصنع كبير للأكاذيب، وشعارات لا ظلّ لها من الحقيقة، والفساد يستشري بين رجال القمة، وفلسفة الأقوياء هي الحاكمة.

قال عمر: هل تعرف أين يكمن جمال الحياة؟

قلت: أين؟

قال: في التحدي.

ثم سألني: من يحكم عالمكم؟

وأضاف مبتسما: أعني قريتكم الصغيرة؟

قلت: أميركا.

قال: أميركا؟ ما أميركا؟

قلت: دولة قامت وراء بحر الظلمات، بوسائل القتل والاستيطان، في أرض ليست أرضها، هاجر إليها الناس من أوربا، أو بلاد الفرنجة، وهناك أبادوا قبائل وشعوبًا استوطنت تلك الأرض لآلاف السنين، لقد عاش الهنود الحمر في أميركا قرونًا، كانوا هم أهلها وسادتها، حتى دخل عصر الكشوفات الجغرافية، ووضع الرجل الأوربي قدميه فوق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القارة الجديدة، فكان لا بدّ من إبادة ساكنيها، والاستيلاء على أراضهم وثرواتهم، تماما كما قامت دولة اليهود على أرض فلسطين، بل إنّ أميركا ترى في إسرائيل شبابها الأول، وما كان لأيّ من الدولتين أن تقوم بغير الهجرة والقتل والاستيطان، لأنها لا تستطيع أن تُقنِعَ أحدًا بأن يتخلّى عن أرضه بغير تلك الوسائل.

وسألني عمر: وهل أقام اليهود لهم دولة على أرض فلسطين؟

قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

وحين هزّ رأسه في إنكار **قلت له**: كانت البداية هجرة يهود أوربا إلى الأرض المقدسة، وانتهت إلى أن تكون لهم فيها دولة وسلطان، وبين هذه وتلك قصص تطول عن القتل والإبادة والتجويع والتشريد، وقصص أخرى عن خيانات ملوك وأمراء وقادة عرب، إنّ أمريكا، كما هي إسرائيل، دولة متحركة، لا تطيق الوقوف مكانها، قد تمكّنت منها غرائز الحيوان الذي يبحث في كل يوم عن فريسة، فراحت تقفز فوق خطوط الماء وحواف القارات، حتى وجدتنا في طريقها، وهي تحاول أن تقنع العالم بأنّ عهدًا جديدًا أميركيًّا قد بدأ، وهو ما أسمته بالنظام العالمي الجديد، وخلاصة فلسفته: (**إما أن تقبل ما نعرضه عليك، أو نقتلك عندما نقرر**)!

وقطع أبو بكر بن عليّ حديثنا حين وضع الماء بين يدي عمر وهو **يقول**: محمد بن مسلمة يستأذن في الدخول.

قال عمر: ائذن له.

دخل محمد بن مسلمة فجلس بالقرب من عمر، وما فتئ يرمقني بنظرات متفحصة قبل أن **يسأل**: من الفتى؟

ويجيبه عمر: إنه ضيفنا.

ثم أضاف: متى ستخرج يا ابن مسلمة؟

قال: عند الفجر يا أمير المؤمنين.

ومن حديث الرجلين عرفت بأنّ محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه هو (المفتش العام) لدولة الخلافة، يتلخّص عمله في مراقبة ولاة الأنصار، والنظر في شكاوى العامة ومظالمهم، وهو يخرج كل عام إلى مكة والطائف واليمن والعراقَيْنِ (البصرة والكوفة) والشام، وغيرها من ولايات الدولة، فيجلس إلى الناس في المساجد والأسواق والمنازل، ومَن كانت له شكوى على واليه رفعها إليه، فنظر فيها، وتحقق من صحّتها، وكان يبدأ عمله بالشكاوى التي يحملها عمال البريد إلى المدينة، وكان عامل البريد إذا أراد السفر إلى المدينة

نادى في الناس: مَن كانت له رسالة إلى أمير المؤمنين حملناها إليه، فيكتب الناس إلى عمر، دون أن ينظر الوالي ماذا كتبوا، فإذا حمل البريد الرسائل نثرها عمر بين يديه وقرأها، وهو الذي يقول: (**خيرٌ لي أن اعزلَ كلّ يوم واليًا، من أن أُبقي ظالمًا ساعةً من نهار**).

ولم يطل بنا المقام في بيت عمر حتى ارتفع صوت ابن أم مكتوم، فخرجنا لصلاة العصر، وفوجئت بالمسجد وقد ضاق بالمصلين، حتى افترش الرجال الأرض خارجه، وحدّثتُ نفسي أنّ قافلة دخلت المدينة في تلك الساعة، وحين أصبحت وسط الناس لم أجد أمير المؤمنين إلى جانبي، لم أستطع أن أجاري حركته وسط الجموع، لقد كان ينساب في يُسر، وكنت أتعثّر بين الحين والآخر، حتى ارتطم كتفي بأحدهم، والتفتُّ إليه معتذرًا، فاستقبلني بابتسامته الحبيبة، وتعانقت نظراتنا: أوس؟!

وسألته وأنا أدور ببصري في كل ناحية: من هؤلاء؟

قال: إنهم أمداد أهل اليمن.

هزت رأسي مستفهما فأضاف: تأتينا الأمداد من كل المدن والأمصار، ومن هنا تنطلق الجيوش والسرايا إلى الثغور لتنضمّ إلى

www.alukah.net

جيوش الفتح، في العراق وخراسان والشام.

بعد الصلاة كنت أستطلع بفضول ما يجري، ولم يكن للرجال شأن غير الاستعداد للخروج إلى الجهاد، فلا عجب أن يزدحم الناس عند دكاكين بيع الأسلحة، ودكاكين الحدادة، فهذا يشحذ سيفه، وآخر يبحث عن درع تناسبه، وثالث يحسب عدد الرماح في كنانته.

جذبني أوس من يدي وهو **يقول**: تعالَ لأريك شيئًا.

ثم خرج بي إلى الضاحية، فرأيت مجموعات من الشباب تتدرّب على القتال بالسيوف وركوب الخيل والجري والرماية، وفاجأني أوس وهو يلقي إليّ بأحد السيوف **ويقول**: لنرى مهارتك في القتال.

ضحك مني كثيرًا وأنا أحاول أن أمسك بالسيف، لقد ناءت يديّ بوزنه، وضحك مني أكثر حين نازلته، لقد كان السيف يميل بي ذات اليمين وذات الشمال، **فقلت له**: لو كانت معي بندقية لأريتك كيف يكون القتال.

وسألني: وما (بندقية)؟

قلت: سلاحنا في القتال.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

قال: أهي أشدّ فتكًا من السيف؟

وابتسمت وأنا **أقول**: عافاك الله من عصر البندقية والمدفع والطائرة!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(٤)

كنت أجلس في ظل شجرة التوت في ظهيرة يوم قائظ، وقد أصبحتْ صديقة لي منذ التقيت الخليفة عندها، فرحت أقصدها بين الحين والآخر، فأنام في المكان الذي وجدته فيه نائمًا، وقد قيل: شرف المكان بالمكين، وكان أوس في أعلاها، يمطرني بثمرها، حين جاءنا صوت المنادي: الصلاة جامعة.

نزل أوس من فوق الشجرة، ثم أخذ بيدي وهو **يقول**: أسرع.

وسألته وأنا أقفز فوق الساقية: إلى أين؟

قال: إلى المسجد، أما سمعتَ النداء؟

قلت وقد تسارعت أنفاسي: ليس الوقت وقت صلاة؟!

قال: هذا يعني أنّ أمرًا ما قد حدث.

وحين دخلنا المسجد كان عمر يخطب في الناس **ويقول**:

(أيها الناس: لقد رأيتُني وأنا أرعى الغنمَ لخالاتٍ لي من بني

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مخزوم، فأقبضَ القبضةَ من التمر والزبيب، فأظلُّ بها يومي كله)، ثم نزل عن المنبر!

والتفتّ إلى أوس، فما زاد على أن تبسّم، وأشار بطرف عينه إلى رجل يعترض الخليفة **ويقول له**: يا أمير المؤمنين، ما زدتَ على أنْ عِبْتَ نفسك أمام الناس؟!

ويقول له عمر: (إني خلوتُ بنفسي، فحدّثتني فقالت: أنت أميرُ المؤمنين، فمَنْ ذا أفضلُ منك؟ فأردتُ أن أعرّفها قَدرها، وأن أطأطئ منها أمام الناس).

عمر نسيج وحده، إنّ ناطحات السحاب التي اقتحمت الغيوم ليست في شموخه، كانت عيناه الصافيتان تضيئان بالإيمان العميق والحب المشعّ، وكلماته تنساب انسياب الماء في الشلال، فتعطّر الأجواء من حوله.

رأيته بعد ذلك يطوف بين أهل اليمن، وعلى لسانه سؤال واحد: أفيكم أُوَيْسُ القَرنيّ؟

حتى أجابه أحدهم وهو يشير إلى رجل كان يجلس في ظل ناقته: هناك يا أمير المؤمنين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويسرع إليه عمر، ويسلم عليه ويحتضنه، ثم **يسأله**: أنت أويس القرني؟

ويجيبه الرجل: أنا هو يا أمير المؤمنين.

فيقول له عمر: استغفر الله لي يا أويس.

ويقول أويس في حياء: أمثلي يستغفر لمثلك يا أمير المؤمنين؟!

ويقول له عمر: إنها وصية رسول الله ﷺ.

ويقول أويس، ودمعتان تنحدران على خديه: يغفر الله لي ولك يا أمير المؤمنين.

وتساءلت في نفسي عن سرّ هذا الرجل الذي يرجو عمر بن الخطاب دعاءه، هممتُ أن اقترب منه، وأسأله أن يستغفر لي كما سأله عمر، لكنّ أوسًا أمسك بيدي وهو **يقول**: أمير المؤمنين يطلبك.

ومشيت معه، وفي الطريق **سألته**: مَن يكون أويسٌ هذا؟

قال: من أهل اليمن، أسلم ولم يَرَ النبي ﷺ، فقد كانت له أمٌّ عجوز يقوم على خدمتها، أصيبَ بالبرص فدعا الله فشفاه إلا موضعًا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كالدرهم في كتفه، وقد أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنّ أويسًا سيأتيهم مع أمداد أهل اليمن، وأوصاهم قائلاً: (**فمَن رآه منكم فليسأله أن يستغفرَ له**).

حين دخلنا المسجد، كان عمر يجلس في زاوية منه، وحوله بعض أصحابه، فلما رآني مقبلاً تبسّم لي، **وقال** لمَن حوله: رحّبوا بأخيكم.

كان لتلك الكلمة أثرها في نفسي، كان قلبي يستحم في معانيها الكبيرة، تيار خفي يسري في جسدي فترتعش أناملي، هذا عالم جديد لا نعرفه إلا في صفحات الكتب، لقد قرأت كثيرا عن سيرة الرجل الذي يرهبه الشيطان، حتى إذا سلك طريقًا سلك الشيطان طريقًا أخرى، كان إسلامه فتحًا، وهجرته نصرًا، وإمارته رحمة، هكذا وصفه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، لكنني الآن بين يديه، تحدّثني نفسي بأنني أرى فيلمًا سينمائيًّا على شاشة من الوهم، أتحسّس كل شيء حولي كي أتأكّد بأنني لست في حلم من أحلام اليقظة، أشعر وكأنني تائه يسير في درب مُترَب، يتلظى بوهج الشمس، فتهبّ عليه نسمات رطبة منعشة حملتها كلمات الفاروق: رحّبوا بأخيكم!

وتكلم عمر فقال: (**إنّ الناسَ ليؤدّون إلى الإمام ما أدّى الإمام**

www.alukah.net

شبكة الألوكة

إلى الله، وإنّ الإمام إذا رتع رَتَعَتِ الرعيّة).

فعرفت أنّ هؤلاء هم بعض الولاة والقضاة الذين جاءوا من أمصار الدولة، جلست أستمع إليه وهو يوصيهم بتقوى الله سبحانه، والعدل بين الناس، وأن لا يوصدوا أبوابهم في وجه أحد، وأن يكونوا مع المظلوم حتى يأخذوا له الحق ممّن ظلمه.

ثم راح يسألهم عن أحوال الناس في أمصار الدولة، وعمّا وراءهم، فمَنْ أراد أن يردّه إلى عمله ردّه، ومَنْ شاء أن يعزله عزله، وكان إذا قدمت عليه الوفود سألهم عن أميرهم: كيف هو؟ كيف سيرته فيكم؟ هل يعود المريض؟ مَن يقوم على بابه؟

ورأيته يشير إلى أحد جلسائه قائلاً: (إني أراك يا أبا مريم ضعيفًا، وقد عزلتك عن قضاء البصرة، ولأوليّنّ عليه رجلاً إذا رآه الفاجر هابه).

ثم قال: **(لا ينبغي أن يليَ هذا الأمر إلا رجلٌ فيه أربعُ خصال: اللينُ في غير ضعف، والشدّةُ في غير عنف، والإمساكُ في غير بخل، والسماحةُ في غير سَرَف، فإذا سقطتْ واحدة منهنّ سقطتْ الثلاثة).**

وختم وصيته بقوله: **(لو مات جَديٌ بساحل الفرات لخشيتُ أن**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يحاسبَني الله عليه).

علت شفتيّ ابتسامة ذات معنى، وأنا أتذكّر الدماء التي سالت على شاطئ الفرات، لم يمت هناك جديٌ ولا خروف يا أمير المؤمنين، بل سقط على شاطئيه مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، اغتالتهم أيدٍ عابثة، باعت آخرتها بدنيا غيرها.

حين خرج من المسجد مشيتُ إلى جانبه، كانت شمس الظهيرة ترسل أشعتها القوية فوق الرؤوس حين استوقفته عجوز تتوكّأ على عصاها، **قالت**: رويدك يا عمر حتى أكلمك.

ويقترب عمر منها وهو **يقول**: تكلّمي، إنني أسمع.

قالت: عهدي بك وأنت تسمى (عُمَيرًا)، تصارع الفتيان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سُمّيتَ (عمرًا)، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيتَ (أمير المؤمنين)، فاتق الله في الرعية، واعلم أنّ مَن خاف الموت خشيَ الفَوْت.

وطال بنا المقام في تلك الشمس فنهرها رجل ممّن كان معنا وهو **يقول**: هيه، لقد اجترأتِ على أمير المؤمنين، وأطلتِ عليه في هذا الحرّ، **فيقول له عمر**: دعها، أما تعرف هذه؟ هذه (خولة بنت

حكيم)، التي سمع الله قولها من فوق سمائه، فعمر واللهِ أحرى بأن يسمعه.

وفي بيت عمر لفت نظري بعض لفافات من ورق في زاوية الغرفة، تناولت إحداها ثم فضضتها فقرأت فيها:

(من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى القاضي شُريح بن الحارث: سلامٌ من الله عليك، أما بعد: إذا أتاك أمرٌ في كتاب الله فاقضِ به، ولا يَفتنْكَ الرجالُ عنه، فإن لم يكن في كتابِ الله، ولا في سُنّةِ رسول الله ﷺ فأنت بالخيار، إن شئتَ أن تجتهدَ رأيكَ، وإن شئت أن تُؤامرني، ولا أرى مؤامرتَك إيّايَ إلاّ أسلمَ لك).

وجلست إلى عمر في بيته فتحدثت معه، **قلت له**: أما سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا عن فتنة لا تدع بيتًا من بيوت العرب إلا دخلته؟

قال: بلى.

قلت: قد كان!

قال: وما ذاك؟

وحدثته عن القنوات الفضائية التي دخلت كل بيت، وعن طريقها

نزل تجار الرذيلة ضيوفًا عندنا، فتحدّثوا معنا بلا قيود، وأمطرونا بمشاهد العهر، ألسنا نقرأ في كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: 12]؟ هم هؤلاء، كالأنعام تمامًا، بل هم أضلّ، المرأة ترقص شبه عارية، والبطل يقبّل خليلته بلا حرج، وآخر يداعبها في وقاحة سافرة، إنها مشاهد لم يجرؤ الشيطان يوما أن يفكّر في إخراجها، وما أظنه إلاّ وهو يعجب لما تصنع استوديوهات (هوليود)، وما تنتجه السينما كل عام، إنها حيوانات (دارون)، والإنتاج المسخ لنظريته التي لا ترى في الإنسان إلا حيوانًا ناطقًا، لا حرج في أن يُطلق العنان لغرائزه، وينطلق بشهوته بلا حدود، لقد نشأتْ أجيال من البشر لا تستقبح القبيح، ولا تفرّق بين الشهد والقمامة، أجيال مشوّهة، رضعت أفكار نجوم الفن وأخلاقهم!

قال عمر: في الجاهلية كانت البغايا تنصب الرايات الحُمر فوق بيوتهنّ ليقصدها طلاب الفاحشة.

قلت: والبغايا في عصرنا يرفعن راياتهنّ عير شاشة التلفاز، أليس من علامات الساعة أن تُؤتى النساء في الشوارع؟ إنّ القنوات الفضائية تمهّد الطريق لذلك العصر البغيض!

وسألني عمر: قلت لي أنّ أميركا تحكم عالمكم؟

www.alukah.net

قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: حدثني عنها.

وحدثته عن أميركا، الدولة التي بدأت حياتها بـ (قتل الآخر)، وكان القتل أول سطر كُتِبَ في تاريخها يوم بدأ تدوينه، ومن وجهة النظر الأميركية فإنّ القتل لا حرج فيه، فكل ما هو نافع لك يصبح مباحًا، ولا عبرة بالوسائل التي توصلك إليه، فـ **(الغاية تبرّر الوسيلة)**، كما يقرر المبدأ الميكافيللي!

يقول لك الأميركي: لولا إبادة الهنود الحمر لما كانت أميركا، ولولا أميركا ما كانت حضارة القرن العشرين، لقد خضنا في دماء الهنود الحمر لكي نصل إلى القمر، وما قيمة الهنود الحمر أمام تحطيم الذرة وغزو الفضاء؟

وفي الضمير الأميركي المتحضّر فإنّ إبادة قبائل الهنود الحمر كان عملية جراحية ضرورية من أجل نمو البشرية وقيام الحضارة!

ثم حدثته عن بداية الظهور الأميركي، وكيف جمع قرصان البحار والمحيطات (مورجان) ثروته التي أصبحت فيما بعد أهم الأصول لأكبر المصارف الأميركية، لقد كان يجوب البحار بسفينته

www.alukah.net

بحثًا عن الغنائم الجاهزة، فيهاجم سفن القراصنة الصغار، ويستولي على ما غنمته من الأموال والكنوز، حتى إذا حضره الموت ترك لأسرته خريطة تقودها إلى مخابئ ثروته في إحدى الجزر، ومن ذلك الإرث تأسس (مصرف مورجان) أكبر المصارف التي تدير عجلة الاقتصاد الأميركي!

وبثروة مورجان، وعقلية رجال مثل (روكفللر) الذي أباد قبائل بأكملها من أجل السيطرة على آبار النفط، نشأت الامبراطورية الأميركية، شجرة خبيثة لا ترويها غير دماء البشر، فلا عجب أن يكون لكل رئيس أميركي أجندته الخاصة، وحربه الدموية التي يسخّر فيها النار الأميركية كي تحرق الآخرين!

والشعب الأميركي خليط عجيب من كل شعوب الأرض، نواته المغامرون، والباحثون عن الذهب، وتجار العبيد، وتجار الفراء، والمبشّرون، والقتلة المحترفون، والهاربون من السجون، أو من أحكام القضاء، خرجوا إلى المجهول بحثًا عن حياة أفضل من تلك التي عرفوها في أوربا، لا يحملون معهم سوى المسدس والإنجيل المحرّف، وكل منهما أكمل مهمة الآخر، فقد تعاونا على أكمل وجه لقتل الملايين من الهنود الحمر باسم الربّ!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

في حارات مصر كان هناك قوة اسمها (الفتُوّة)، تفرض نفسها بالعصا والسكين، ومن اعترض طريقها قتلته، وسياسة أميركا في العالم هي سياسة الفتُوّة الذي لا يحتمل أن يشاركه حارته فتُوّة آخر، والقانون الأميركي قانون غابة، لا أمل فيها لحمار أن يتغلّب على أسد، ولا لأرنب أن يطارد ذئبًا، ولا لغزال أن يتحدّى نمرًا، ومَنْ أراد أن يحصل على حقوقه فليستعير مخالبًا أوأنيابًا، وليتعلّم الزئير!

وكزني عمر بدرّته وهو **يقول**: لا تُلقِ على عدوك مسؤولية هزائمك، ولا تَلمهُ لأنه قاتلك أو قتلك.

قلت: إننا نبحث عن طريق وسط العتمة والظلام.

قال عمر: ما زالت عصا موسى بين أيديكم، شقوا بها طريقًا بين الأمواج، وفجّروا بها عيون الماء من بين الصخور.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

(٥)

ـ ألـم تتزوّج بعد؟

وفـاجأني سؤالـه، وحاصرتـي الـمشاهد من كل ناحية، فتراجعت لأسند ظهري إلى شجرة قريبة، نظر إليّ أوس في دهشة ثمّ **سألني**: ما بك؟

أصوات الانفجارات تصمّ أذنـيّ، والدخان الأسود يسدّ الأفق، والـمشهد من حولي مطرّز بلون أحمر.

اقترب أوس مني حتى شعرت بأنفاسه، أمسك بيدي وهو **يقول**: ما بك يا رجل؟!

كنت أسبح فـي بحر الذكريات، و(نـاهد) تقف عند شاطئه، تـرمقني بنظرات حبيبة.

هزّ أوس يدي وهو **يقول**: هل قلت ما يسوؤك؟

قلت: لـم أتـزوّج بعد يا أوس.

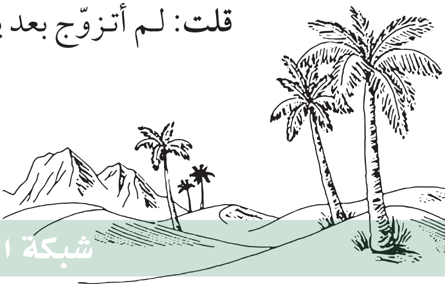

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسألني: كم عمرك؟

قلت: سبعة وعشرون عامًا.

امتطى أوس حصانه، وخاطبني **قائلاً**: ألن تصحبني إلى ساحة التدريب؟

قلت: لا.

ومضى في طريقه.

عدت بذاكرتي إلى مدينة الفلوجة، إلى ذلك الحيّ المحاذي للطريق التي تصلها بالقُرى المجاورة، التي نزحت إليها بعض العائلات الهاربة من جحيم القصف الأميركي للمدينة سنة (2004)، وفي بيت يطلّ على منتزه صغير كانت تسكن ناهد، الطالبة المتخرجة حديثًا من كلية العلوم والمشرفة على الدورة النسوية الصيفية في مسجد الحيّ.

وعلى بعد خطوات من المسجد يقع بيتي الذي ورثته عن أبي رحمه الله، وكنت أسكن فيه مع أمي وشقيقتي الصغرى (سلمى).

وذات يوم وأنا أتناول إفطاري حدثتني أمي أن عليّ أن أتزوج،

فقطار العمر يمضي، وليس لأحد أن يوقفه، لكنني اعتذرت، وتعللت بأنّ الـمدينة تتوقع أيامًـا عصيبة، فأميركـا التي ذاقت هنـا أول هزائمها فـي القرن الـحادي والعشـرين لن تـدّخـرَ جهدًا من أجل الانتقام.

لكنّ منطق أمي كان بسيطًا ومقنعًا، إنّ في الـحياة فصولاً أربعة، لا نستطيع أن نُلغيَ أحدها، لكننا نستطيع أن نتأقلـم معه، أن نعـدّ العدة لبـرد الشتاء وقيظ الصيف، كي نستمتع بنسمـات الربيع.

وسألتها: والعروس؟

ارتسمت ابتسامة بـريئة على وجه سلـمى وهي **تقول**: لك عندي واحدة.

وسألتها: مـن؟

قالت: نـاهد.

- نـاهـد؟

- جارتنا، ومُدَرّستي في مسجد الـحيّ.

ولـم تمضِ إلا أيام قليلة حتى خطبتُ ناهد، وجلست إليها فحدثتها، وتـحدّثت إليّ، كنت أراها نسيجًا وحده بين النساء، في

www.alukah.net

علوّ الهمّة، وحسن الخُلق وسعة الأفق، وقوة العاطفة.

قالت لي يومًا: أنت مهندس، تشيّد البيوت والعمارات والجسور، أما أنا فمهندسة من نوع آخر، وظيفتي بناء العقول، وتطوير المهارات، واكتشاف المواهب، ألا ترى أنّ عملي أهم من عملك؟

قلت: لكل منا عمله، أم تريدين لمواهبك أن تسكن الخيام؟!

وتبتسمت ضاحكة وهي تضغط على يدي!

في تلك الأيام كانت أميركا تعدّ العدة لتثأر من المدينة التي عاش جنودها أسوأ أيامهم عند أبوابها، ومن نجى منهم رجع إلى بلده مثقلاً بالأرق والقلق وجحيم الكوابيس.

وكان (الدولار) أخبث الطرق الأميركية، افتتحت به سوق رقيق، عرض فيه المنافقون عقيدتهم للبيع، فظهرت طائرات (أف 16) في سماء المدينة، تضرب أهدافًا منتقاة بدقة.

وفي ليلة من ليالي ذلك الخريف الحزين تحطّم زجاج نافذتي، وقفزتُ من فوق السرير على صوت انفجار قويّ، خرجت إلى الشارع دون أن أنتبه إلى خيط من الدم ارتسم على وجهي الذي أصابته بعض شظايا الزجاج المحطّم، وحين فتحت باب منزلي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جاءني صوت أمي: أين أنت يا ولدي؟

قلت: هنا يا أمي، إنني في الشارع.

تسارعت نبضات قلبي وأنا أبصر سحابة من الدخان تعلو منزل ناهد، وحين وصلت إلى هناك كان بضعة رجال يحاولون إزاحة كتلة من الكونكريت من فوق جثة لم يبدُ منها سوى قدميها، اندفعت نحوهم بقوة ورحت أدفع بكلتا يديّ حتى رأيتها، مدّتْ يدها ببطء ورمقتني بابتسامة خافتة، **وقالت** بصوت متقطع: الحمد لله أنني رأيتك.

ثم أغمضتْ عينيها، وهي ترفع سبابتها، وما زال شبح الابتسامة عالقًا بين شفتيها، مَن يدري؟ ربما رأت مقعدها من الجنة.

وبكيت كما تبكي النساء وأنا أحملها بين يدي!

حين ضمّني الليل في بيت عمر لم أستطع أن أنام، فبقيت مستيقظًا إلى ساعة متأخرة، يخيّل إليّ أنني سمعت صرير الباب، المكان من حولي يغرق في ظلام يمزقه ضوء خافت كان يتسلل من كُوّة صغيرة في الجدار، تركتُ فراشي، ثم نظرت من خلالها فرأيت القمر وقد اكتمل بدرًا، والهدوء الخاشع يطوّق المكان، لم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أسمع سوى ثغاء شاة في بيت قريب، نظرت إلى بعيد فتراءى لي بأنني رأيت شبح رجل يتوكّأ على عصاه، تبعته بنظراتي حتى ابتلعه الظلام.

عدت إلى فراشي، ثم اغمضت عينيّ وأنا أحاول أن أغفوَ، فأبتْ عليّ عيناي، فقررت أن أخرج إلى الشارع لأستطلع ليل المدينة وما يُخفيه من أسرار، فتحسّست طريقي في الظلام حتى انتهيت إلى الشارع، نبحني كلب كان رابضًا عند عتبة أحد البيوت، لكنه عاد إلى مكانه حين رمقته بنظرة عتاب!

لم أخطُ سوى بضع خطوات حين سمعت قارئًا يقرأ القرآن، كان الصوت قادما من بيت قريب، اتجهت إليه، وأسندت ظهري إلى الجدار، ولم أعجب، أليس هؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ [الذاريات: 17]؟

لم أنتبه لدمعتين انحدرتا على خديّ وأنا أغادر المكان ثم أنعطف إلى زقاق ضيق قادني إلى فسحة من الأرض تتوسطها بركة ماء يسبح فيها سرب من البط، أعجبني المشهد، فجلست أتأمله، ولم أستطع أن اطرد شبح الذكريات الذي يطاردني، فتذكرتُ ليل العراق وساعاته الكئيبة، لطالما مزّقه صوت الانفجارات الدامية

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وطلقات الرصاص وأزيز الطائرات الأميركية التي استباحت سماء الوطن، إذ لم يبقَ لأميركا ما تثأر به لكرامتها المهدورة غير المنازلة من بعيد، وقد هزمها أبطال المقاومة حين قاتلتهم على الأرض، ورأت من مشاهد البطولة ما لم تعهده في كل الحروب التي خاضتها في تاريخها القصير!

والتاريخ لا ينسى أبدًا، ومهما حاولت أميركا أن تبرّر هزيمتها في العراق، فإنّ قصص الجهاد والمرابطة في مدينة الفلوجة، والأعظمية، والموصل، وديالى، وسامراء، وغيرها من المدن التي كتبت سطور الملحمة بمداد من الدم، تلك القصص ستبقى حية، تروى للأجيال حكاية جيش كان يظنّ أنه لن يقهر، فتمرغت كبرياؤه بتراب وطني.

ومنذ أن دخل الجيش الأميركي بلادي، وليله لا يعرف الهدوء، وأجنحته السوداء تُخفي الكثير من صور القتل الأميركي، كما تُخفي الكثير من صور الجهاد لرجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أحفاد رجال أبي عبيدة، الذين يرابطون اليوم عند بيت المقدس.

انتبهت لخطوات رجل مرّ بالقرب مني، كان يحمل السراج في يده، نظر إليّ وحيّاني وهو يغذّ خطاه نحو المسجد، **فقلت في**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نفسي: لعلّ الفجر قد اقترب.

مضيت في طريقي، فاستوقفي صوت امرأة كانت **تخاطب ابنتها**: قومي إلى ذلك اللبن فاخلطيه بالماء.

وتقول لها ابنتها: لا يا أماه، لن أفعل.

وتسألها أمها: ولِمَ؟

وتجيبها ابنتها: أو ما سمعتِ منادي أمير المؤمنين أن لا يُشابَ اللبن بالماء؟

فتقول لها أمها: قومي إلى اللبن فاخلطيه بالماء، فأنت بموضع لا يراك فيه عمر، ولا منادي عمر.

وتقول لها ابنتها: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم.

كنت أقف على مسافة قصيرة من ذلك البيت حين رأيته يقترب من بابه، لقد سمع حوار الأم وابنتها كما سمعته، ووقعت مقالة البنت من نفسه، فالتفت إلى خادمه (أسلم) **قائلاً**: يا أسلم، عَلِّم البابَ واعرف الموضع.

ولم أكن بحاجة إلى من يكمل لي القصة، لقد قرأتها مرة ومرة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فهذا أمير المؤمنين عمر، وسيعود في صباح اليوم التالي، ليخطب تلك البنت الأمينة لولده (عاصم)، ليحقق الله بهذا الزواج رؤياه التي رآها ذات يوم عن رجل من ذريته، اسمه كاسمه، يسير بسيرته، فيملأ الأرض عدلاً، وقد أنجبت البنت الأمينة لعاصم ابنته (ليلى)، التي أنجبت (أشجّ بني أميّة) عمر بن عبد العزيز رحمه الله!

نعم يا أمير المؤمنين، إنّ أمة فيها مثل هذه البنت لعلى خير كثير، وما ذاك إلا لأنك (**عففتَ فعفّتْ رعيّتك، ولو رتعتَ لرتعوا**)، لقد قالها لك عليّ بن أبي طالب ﵁ ذات يوم، وقد جاءتك كنوز كسرى وأمواله وذخائره، أرسلها قادتك وجندك في المدائن، فوقفتَ تنظر إليها وتقول: (**إنّ قوما أدّوا هذا لأمناء**)!

هل أحدّثك عمّن رتع في بلادي فرتعت معه الرعية، والحكمة تقول: إذا سرق الملك خروفًا، سرق الوزير بعيرًا، فما بالك إذا سرق الملك قطيعًا؟

الحديث يطول، وتطول معه قصص الرجال الذين حملتهم الدبابات الأميركية إلى أرض الوطن، ليقتسموا الكعكة التي تركها الدكتاتور الصغير الذي منحته موارد العراق قوة تدمير أكبر من تفكيره، وما زالت آبار النفط في بلادي تُرضع الآلاف منهم، دون

موعد للفطام، لا في عامين، ولا في عشرين سنة!

تركت مكاني، ورحت أقتصّ خطى الخليفة حتى انتهى بي إلى المسجد، وما هي إلا لحظات حتى ارتفع صوت ابن أمّ مكتوم فمزّق سكون الليل وحرّك هدوءه، فأقبل الناس من كلّ ناحية، وبكيت كثيرا وأنا أمرّغ وجهي في حُصَيّاتِ المسجد التي فُرِشَت بها أرضه، وحين سمعتُ تكبيرة عمر كان قلبي يستحم بالنور وهو يحاول أن يضع عن كاهله ما ينوء به من الأثقال!

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٦)

كانت المدينة تشهد حركة غير عادية في ذلك اليوم، أفواج الرجال تُسرِعُ نحو المسجد، لم أخطئ تباشير السعادة فوق الوجوه، همسات الناس وأحاديثهم مُشبعَةٌ بالفرح والسعادة، استوقفتُ أحد المارة **وسألته**: ماذا هناك يا أخي؟

وأجابني دون أن يبطئ من خطواته: لقد فتح الله على المسلمين بيت المقدس!

وحين وصلت المسجد وجدته قد ضاق بمَن فيه، ولم أجد لي مكانًا إلا في ظل جدار لبيت قريب، لم يطل بي المقام حتى رأيتُ أوسًا مقبلاً، كان مُشرق الوجه، يلوّح لي بيده، حتى إذا انتهى إليّ **قال**: هل سمعت الخير؟

قلت: وهل هناك مَن لم يسمعه؟

وما لبثنا حتى جاءنا صوت عمر وهو يقرأ رسالة أبي عبيدة بن

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الـجراح ﵁، فعلمتُ بأنّ بيت الـمقدس قد استسلـمت صلـحا لأبـي عبيدة، ولكن بطارقتها رفضوا أن يسلـموا مفاتيـحها إلا لرجل يقرأون صفته فـي كتبـهم، فلـما ذكروها لأبـي عبيدة **قال**: ذاك عمر بن الـخطاب.

ثمّ كتب إليه يستقدمه.

تفـرّق الناس وبقيت فـي مكانـي، وأكثـر من صورة ومشهد تـمرّ فـي ذاكرتـي، بـدأت بـرحلة السلام الغائب مـع إسرائيل، مـن (كامب ديفـيـد)، إلـى (أوسلـو)، إلـى (واي ريفـر) و(شـرم الشيـخ)، سنوات طويلة تلوّنت فيهـا أيامنا بلون أحـمر ونحن نبحث عـن سلام مـع عدونـا، نستـردّ بـه جزءًا من أراضينـا التي فقدنـا فـي حـرب الأيـام الستة، فـي القـدس والـجولان والضفـة وسيناء.

وهـا هـو بيت الـمقـدس يفتحـه عمر، وسيحـرّره صلاح الدين الأيوبـيّ، قبل أن تسلـمه بـريطانيـا إلـى اليهـود فـي أربعينيات القـرن العشريـن، بتواطؤ ملوك وحكام وقادة عرب!

وكـم من القادة والزعمـاء فـي تاريـخنـا لـم يكونوا عظمـاء، وكـل مـا نجحوا فيه أنـهم اخترعوا أسمـاءً شريفة لـجرائمهم، فمـاتوا فـي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قمصان العظماء، وتغنّى بهم الشعراء، وهم لصوص وقتلة؟!

وانتبهت إليه وهو **يقول**: كأنّ اليوم عيد!

وأضاف أوس: لا يزال عمر في المسجد مع شيوخ المهاجرين والأنصار، يستشيرهم في خروجه إلى الشام.

قلت: سيخرج.

وسألني: وكيف تعرف؟

وأضفت وكأنني لم أسمع سؤاله: سيخرج عمر، يلبس ثوبًا به بضع عشرة رقعة، يطأطئ رأسه شكرًا لله وهو على ظهر دابته، وسيستقبله بُطريق بيت المقدس عند أسوارها، فينظر إليه ويقول: (**هذا والله الذي نجد صفته في كتبنا، ومن يكون فتح البلاد على يديه**).

في ذلك اليوم لم يكن للناس حديث في المسجد والمجالس والأسواق والبيوت سوى حديث الفتح العظيم، فبيت المقدس لم تكن بالنسبة إليهم مجرد مدينة، إنها القبلة الأولى التي صلّوا إليها ثلاث عشرة سنة في مكة، وأكثر من ثلاث سنوات في المدينة، وهي أرض بارك الله سبحانه فيها، وبارك ما حولها، وفوق صخرتها ترك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النبي ﷺ بصمة قدمه حين عرج إلى السماء، ألا تعني تلك البصمة النبوية المباركة بأنّ هذه الأرض مُلكٌ لأتباعه، ما تطاولت القرون، وتعاقبت الأجيال، وتوالت الأحداث؟!

وبالنسبة إليّ كان هذا اليوم بداية حلقة جديدة في التاريخ، تاريخنا، وتاريخ العالم كله، فأكثر الأحداث تأثيرًا في رسم خريطة العالم وتجاذباته السياسية وقعت عند هذه المدينة، منذ سقوط الخلافة العثمانية، ودخول الجيش البريطاني مدينة القدس، ووقوف الجنرال (اللنبيّ) عند قبر صلاح الدين في دمشق حيث قال قولته المشهورة: (**ها قد عدنا يا صلاح الدين**)!

حتى إذا جاء العصر الأميركي، جاب القراصنة البحار، في حاملات الطائرات، والغواصات النووية، والبوارج العملاقة، وهم يحاولون أن يسوقوا شعوب العالم بنفس الحبال التي كان رعاة البقر يسوقون بها قطعان الماشية في أراضي الغرب الأميركي.

وكانت فلسطين هي محور الحدث، وبؤرة الصراع العالمي بين الإسلام وأعدائه، وكلما انتخب الشعب الأميركي رئيسًا له، وسواء كان أبيض البشرة، أم من أصول إفريقية، فإنّ من أوائل كلماته التي يطلّ بها على الإعلام: (إنّ أمن إسرائيل خطّ أحمر)!

www.alukah.net

ومن أجل أمن إسرائيل أمطرتنا أميركا بأمّ القنابل ذات الأطنان التسعة، والقنابل العنقودية، والقنابل الليزرية الذكية، وجاء جنودها ليستحمّوا في بحيرات النفط العراقي، فدمّروا كل شيء في طريقهم، وفق المنطق اليهوديّ: (أنا أقتل، إذًا إنا موجود)!

حين تحرك الركب إلى هدفه، خرجت المدينة تودّع الخليفة، وكان في مقدمة المودّعين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي أمّرَهُ عمر على المدينة، عانقه عمر، وشدّ على يديه بقوة، ثم أوصاه بأهل المدينة خيرًا، قبل أن يودّع كبار المهاجرين والأنصار، ثم يمتطي ظهر دابته، وكنت أرقب المشهد من خلال دموعي، وقطرات من السكينة ترطب قلبي، إنه مشهد لن يتكرّر في التاريخ، وهو يومٌ له ما بعده، وأنت لا تستطيع أن تنظر في وجه عمر دون أن يخالجك شعور بالرهبة والعاطفة الحبيبة، هل تأمّلتَ يوما ارتعاش الأضواء المنعكسة على سطح الماء؟ إنه تمامًا نور الله في وجه عمر!

وليتني أستطيع أن أشاطركم مشاعري وعواطفي، أو أن أرسم ذلك المشهد على لوحة من ورق، ولو كان هاتفي المحمول معي لصوّرته لكم، فليس هناك أجمل من أن تشارك الآخرين أعظم ما لديك، لكنني الآن في عصر آخر غير عصر المعلوماتية والاتصالات،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إنه عصر الملائكة!

لم نبتعد عن المدينة كثيرًا حين توقف الركب، عمر وخادمه على دابة سوف يتعاقبون ركوبها على طول الطريق إلى بيت المقدس، يركب عمر لمرحلة، ثم يركب خادمه لمرحلة، ثم يمشي الاثنان ليُريحا دابتهما لمرحلة ثالثة!

وقد خرج مع عمر بعض المهاجرين والأنصار، في موكب لم تصحبه سيارات مظللة، ولم تقف في طريقه حشود تصفق في بلاهة، ولم تكن هناك حواجز تغلق طريق الناس، إنّ كلّ شيء هنا يمضي في ثقة ويسر.

التفت إليّ عمر **يقول**: ارجع إلى عالمك يا ولدي، وحسبك من هذا الماضي وقفة اعتبار وتأمّل.

وأضاف: سيلقى الظلم مصرعه حين تصرعون الخوف في قلوبكم، وإنما يهابك عدوك على قدر مهابتك لله.

وكان آخر ما سمعته من عمر: إنّ جنة الله ليست في أرضه.

مضى الركب إلى غايته، وكانت خطوات الفاروق فوق رمال الصحراء بداية لتاريخ جديد، بدأ بفتح بيت المقدس، وسينتهي

حين يقتل الإمامُ (**محمدٌ بن عبد الله المهدي**) و(**المسيح بن مريم**) الأعورَ الدجّالَ بالقرب منها.

إنّ كل لحظة عظيمة في التاريخ البشري، وكلّ إنجاز، هو تجسيد لانتصار إرادة، وخطوات الفاروق فوق رمال الصحراء، في طريقه إلى بيت المقدس إنما كانت تجسيدًا لإرادة أمة، خرجت من قلب الصحراء، لتقود البشرية على منهج الله وخطى الأنبياء.

هبطت على الصحراء عتمة داكنة، توارى الركب خلالها، نظرت إلى الأفق فلم أرَ غير الظلام، **فصرخت**: يا أمير المؤمنين!

وكان نشيجي يمزّق صمت الصحراء!

حين أفقتُ وجدتُني فوق سرير من أسرّة المستشفى، نظرت إلى الوجوه من حولي وترامت إلى سمعي همسات قريبة: لقد أفاق.

هل كنت في حلم؟ هل عشت لحظات كُتِبَتْ بالماء على الورق؟ ما زال وجه أوس، وذكريات المدينة، وكلمات عمر عالقة في ذاكرتي، مثل سطور باهتة كُتِبَتْ على ورق أصفر عتيق.

إننا ننتمي إلى عالم أكبر من ذواتنا الصغيرة، لا أحد يعيش وحده، تاريخنا يضرب في أعماق الزمن، تمتدّ جذوره إلى دار

(**الأرقم ابن أبي الأرقم**) رضي الله عنه، الذي أمضى المسلمون فيه السنوات الأولى من عمر الدعوة، قبل أن تخرج إلى النور يوم أسلم عمر!

كانت أختي الحبيبة (سلمى) تقف إلى جانب السرير، تتكلم في هاتفها المحمول، والدموع في عينيها:

- لقد أفاق يا أمي، لقد أفاق!

علمت فيما بعد بأنني فقدت الوعي حين ارتطمت رأسي بتلك الصخرة في الموقع الجامعي، وقد مضى على غيبوبتي أيام وليالي، رأيت فيها عمر، ودخلت بيته، وأكلت من طعام زوجته أم كلثوم بنت عليّ، وتجوّلت في أسواق المدينة بصحبة أوس، لطالما كنت أحلم بالارتقاء إلى ذلك الأفق، كي أعيش عصر الملائكة.

وها أنا أعود إلى عالمي، بعد أن عشتُ أياما كانت كفقاعة لمعت بألوان الطيف الجميلة البرّاقة، ثم تلاشت!